صحائف مطوية من تاريخ مصر الحديث

سفارة ناجحة

للأستاذ زاهر رياض

كانت مصر منذ سنة ١٨٤١ تلتزم شروط فرمان يونيو الذي يحتم عليها (ألا يكون لها أكثر من ثمانية عشرة ألف نفر من الجند للمحافظة في داخلية مصر ولا يجوز أن تتعدى هذا العدد لأي سبب ما) وقد أدى ذلك الى الاستغناء عن عدد كبير من الأجانب نتيجة اغلاق كثير من المصانع والمدارس التي يعتمد عليها الباشا في تكوين جيشه وامداده بكل احتياجاته.

واستمرت هذه السياسة في أيام عباس باشا الاول (١٨٤٨ — ١٨٥٤) فتسرب الاضمحلال إلى الجيش وكان وجود عمه سعيد باشا على رأس الاسطول كافياً لاهماله وتعطيل دار الصناعة والاعراض عن اصلاح السفن وتركها لعوامل العطب وبذلك كادت مصر — التي تعب محمد علي باشا في انتشالها من الفوضى السالفة وأشرف منها على أوج العظمة والفخار — أن تعود إلى حال لا تختلف كثيراً عما كانت عليه أيام الحكم التركي.

ولكن بتولي سعيد باشا (١٨٥٤ — ١٨٦٣) عادت الحياة الى مصر وعاد الى شرايينها الدم الذي كاد يجف أيام حكم عباس فبذل هذا الوالي المستنير جهداً جباراً في ترقية الجيش وزاد إليه صبغته الوطنية وحبب الانضمام إليه بتقصير مدة الخدمة فيه كما عني بمآكل الجند ومساكنهم وألبسهم الخز والحرير وأنفر أنواع الزينة. وزوده بأحسن الأسلحة ورقى كثيراً من الضباط المصريين إلى الرتب العالية وزاد من عدده حتى وصل في بعض الأحيان الى ستين ألفاً يشرف على تدريبهم بنفسه.

وكان من سياسة سعيد باشا الاحتفاظ بقدر الامكان بحالة السلم وعدم تعريض الجيش وهو في حالة الانشاء والنهضة الى أي خطر قد يودي بنهضته إلا في حالة الضرورة

الفصوص وهي الاشتراك في حروب السلطان وهي الحالة الوحيدة التي نص عليها الفرمان المذكور .

وكانت الحبشة منذ سنة ١٨٠٠ تعاني حالا من الفوضى لا مثيل لها فقد انقسمت البلاد بين ثلاثة من الرؤوس الكبار يحاول كل منهم استخلاص البلاد كل لنفسه ودارت الحروب الطويلة بينهم مما أدى الى خراب البلاد وهلاك الاهلين وتعرضهم لخطر المجاعة والفقر علاوة على خطر فقدان الحياة واستمرت هذه الحالة القاسية أكثر من نصف قرن ذاقت فيه الحبشة الشقاء ألواناً حتى استطاع الرأس كاسا أن يقضي على المنافسين له ويجلس على العرش ويصير ملك ملوك أثيوبيا ويتخذ اسم تيودورس الثاني لقباً له ولكي يكسب نفسه الصفة الشرعية أسرع فكتب الى مصر يطلب مطراناً للحبشة اذ أن وجود المطران الى جانب الملك يعتبر أكبر سند له يستطيع به أن يتغلب على منافسيه مهما تكن قوتهم

وفي سبيل اخضاع البلاد لا بد له من ارسال الحملات الى أطراف البلاد المختلفة ليحطم كل من تسول له نفسه الخروج على سلطانه . وحدث أن خرجت الجيوش الامبراطورية الى الشمال للقضاء على ثورة اقليم غربي فتخطت الحدود الحبشية ودخلت في أرض السودان وكان من الطبيعي أن يرتكب الجند الحبشي أثناء زحفه ما يرتكبه الجند عادة من نهب القرى وقتل الآمنين فهال سعيد باشا الأمر وعدل عن ايقاف هذا الاعتداء عند حده وعزم على مقابلة القوة بمثلها على كره منه فقد كان يخاف أن يعرض جيشه لخاطرة كهذه كما انه كان يحرص دائماً على الاحتفاظ بعلاقات الود والصداقة لجيرانه خصوصاً الحبشة التي كانت تتبع مصر دينيًّا ودوام الصداقة مع رضى أقباط مصر وهم فئة غير قليلة من رعايا حرصت الاسرة العلوية الكريمة منذ ابتداء أيام محمد علي باشا الكبير على بث أسباب الطمأنينة بينهم ، ولذا استطاع سعيد باشا أن يهدىء نفسه ويخضع ويرحب برأي الساعين في الخير الذين أشاروا عليه أن يرسل اليهم رسولاً من الاقباط عله يستطيع بحسن وساطته أن يعيد المياه الى مجاريها .

وقد زاد من غضب سعيد باشا في أول الأمر ودفع به الى التصميم على مقابلة القوة بمثلها ما صوّره له قنصل فرنسا من أن هذا الاعتداء الحبشي ما هو الا مقدمة لاعتداء أكبر يدبره الامبراطور تيودورس بنية الاعتداء على السودان وربما أدى الأمر الى الاعتداء على مصر ذاتها . فقد كانت فرنسا لا تعترف بالامبراطور تيودورس ملكاً لملوك الحبشة فقد كان أحد الرءوس الكبار وهو الرأس علي حاكم شوا كاتب الامبراطور

نابليون الثالث (١٨٤٨ — ١٨٧٠) في أمر الاعتراف به امبراطوراً على الحبشة لقاء منح فرنسا امتيازات في الحبشة وأرسلت اليه فرنسا فعلاً بعثة رسمية للاتفاق على الشروط النهائية لم تكد تصل الى مصوع لتخترق الهضبة الى العاصمة حتى كان الرأس كاسا قد أودى بالرأس علي وأودى معه بأحلام فرنسا في الحبشة.

ولم يكد سعيد باشا يبلغ غبطة بطريرك الأقباط الانبا كيرلس الرابع الشهير بأبي الاصلاح (١٨٥٤ - ١٨٦٠) في الأمر حتى رأى غبطته أن ينتدب نفسه لهذه المهمة مضحياً براحته متحملاً مشاق السفر في سبيل وطنه ورعيته. فالاحباش جزء من رعاياه ويهمه أن يقف على أحوالهم ويوجههم في أمر دينهم ودنياهم توجيهاً صحيحاً. والاحباش يجلون رجال الدين الأقباط خصوصاً رئيسهم البطريرك الذي كان (ولا يزال) في نفس الوقت رئيس الكنيسة الحبشية منذ أن دخلت المسيحية الحبشة عام ٣٢٠ م على يد التاجر فرومنتيوس.

وأمر سعيد باشا فجهزت للبطريرك ولمن معه باخرة نيلية وحملة الهدايا النفيسة وخرج من القاهرة في الرابع من سبتمبر سنة ١٨٥٦ (٣٠ مسرى سنة ١٥٧٢ ش — ٤ محرم سنة ١٢٧٣ هـ) وأمر سعيد باشا بأن يستقبل الركب استقبالاً رسمياً في طول البلاد التي يمر بها فكانت المدافع تطلق اجلالاً وتعظيماً ويرسل الى الباخرة يومياً كل ما يطلبه ركابها من مؤونة.

وسارت الباخرة حتى الخرطوم وهناك جهزت بما يلزمها من هجن وجمال لتحمل الركب المعظم الى حدود الحبشة ولما علم الامبراطور بقدوم ضيفه خف بنفسه الى لقائه عند الحدود ومعه أربعون ألفاً من الجند حتى إذا أشرف الركبان على بعضهما ترجل الامبراطور وسعى حاسر الرأس حتى وصل الى البطريرك فسجد له وقبل يده وسار في ركابه الى عدله التي اتخذها عاصمة له يومذاك وشاع الخبر في أطراف البلاد فعم الدمع وأقيمت الصلاة في جميع الكنائس.

وقد بالغ الامبراطور تيودورس في استقبال غبطة البطريرك بكل اجلال واحترام لا لانه رئيسه الديني فحسب بل لانه وجد في هذه الزيارة فرصة طيبة تمكنه من توطيد مركزه إلى درجة سوف يقضي بها على أعدائه القضاء الأخير ويقضي على محاولة تبذل لاجل الثورة عليه أو اقصائه وذلك أن تتويجه بوساطة البطريرك سوف يكون المسمار الأخير في نعش هؤلاء الاعداء جميعاً. فالمطران القبطي هو الذي يقوم بتتويج الاباطرة ولم يسبق

لامبراطور قط أن تتوج بوساطة بطريرك الاسكندرية نفسه ولذا لم يكد البطريرك ينتهي الامبراطور في المهمة التي وصل من أجلها وهي وقف امتداد الجند الاحباش على الأملاك المصرية وتحديد الحدود بين الحبشة والسودان تحديداً نهائياً حتى أظهر ارتياحه لذلك وبادر الى تنفيذ ما طلبه البطريرك وحرر بشروط الصلح اتفاقاً أعد للتوقيع . ولم يلبث أن طلب منه أن يتفضل بوضع اليد عليه وتتويجه فأجابه البطريرك الى ما يريد وحدد لذلك موعداً قريباً فكانت فرصة لأن يدعي جميع ملوك الحبشة وأمرائها وقوادها ووجهائها وأهل الحل والعقد فيها إلى حفلة التتويج ليظهروا التفافهم حول الامبراطور ويقسموا له يمين الولاء والطاعة .

ولكن الدسائس الأجنبية لم تكن لتسترخ الى هذا فقد كانت فرنسا وانجلترا تطمعان في التهام الحبشة . اما الأولى فرأت في تتويج البطريرك للامبراطور قضاء أخيراً على آمالها إذ انها لم تعترف به حتى الآن وتؤمل تغلب أنصار رجلها الرأس علي . كما رأت انجلترا أن زيارة البطريرك وحسن علاقته بالامبراطور قضاء على مجهوداتها هناك وقد بدأتها بالفعل بارسال البعثات التبشيرية التي أخذت تجوب البلاد بحرية تامة مقدمة للنشر نفوذها السياسي . وكان البطريرك قد هاله ما يبذله هؤلاء المبشرون من تحويل الاحباش الى المذهب الانجليكاني فعرض على الامبراطور وقف نشاطهم وطردهم من البلاد فلم يتردد في اطاعة أمره . فلم تكد اخبار هذه الاستقبالات الرائعة تصل القاهرة حتى تقدم القنصل الفرنسي إلى سعيد باشا ليبلغه أن المعلومات التي لديه تبيح له أن يؤكد لعظمة الوالي أن البطريرك — وهو رجل داهيه ماكر — قد اتفق مع الامبراطور على غزو مصر وسوف يجد حينئذ من قبطها كل مساعدة وليس أدل على ذلك من أن الامبراطور قد طلب إلى البطريرك أن يمده بعدد من مهرة الصناع والمدربين لتدريب جيشه على النظم الحديثة وأجابه البطريرك الى ما طلبه منه وكتب الى سعيد باشا في ذلك . كما تقدم القنصل البريطاني في الحبشة ليؤكد للامبراطور تيودورس أن زيارة البطريرك لم تكن إلا ستاراً تخفي وراءها استعدادات سعيد باشا لغزو الحبشة وليس أدل على ذلك من أن سعيد باشا قد جهز حملة لهذا الغرض سوف تسير الى الجنوب قريباً ولم يكد سعيد باشا يسمع من قنصل فرنسا أخبار هذه المؤامرة حتى جهز جيشه وأمره بالسير الى الخرطوم . ووصلت أخبارها بلاد الحبشة فتأكد امبراطورها مما ذكره له قنصل بريطانيا فألقى القبض على البطريرك واستعد للحرب ورأى أنه إذا صار الى الحرب وترك البطريرك معتقلاً فسوف يتوج أحد أعدائه امبراطوراً جديداً ويدفعه الى محاربته فأمر به أن يسير معه أينما يذهب

حتى إذا نزل مكاناً يستريح فيه استدعى إليه البطريرك وجعل يؤنبه بفحش الكلام وبذيئه.

وحدث أن لقي البطريرك والدة الامبراطور فشكا إليها ما يلاقيه من ولدها فأشارت على ابنها أن يجمع رجال دولته ويشاورهم في الأمر ففعل ذلك وسئل البطريرك في هذا المجلس عن سبب حضور سعيد باشا الى الخرطوم بعسكره كما سئل عن سبب حمله بين الهدايا التي حملها الامبراطور رداء مسموماً هو ذلك البرنس المصنوع من الجوخ الأحمر المزركش بطراز من الذهب والفضة فوقف البطريرك بين أيديهم والدمع ينحدر على لحيته وأكثر من مدح سعيد باشا واظهار حسن نيته للحبشة أما عن الكساء فهو هدية الباشا إلى النجاشي وطلب أن يلبس هو هذا الكساء ليتحقق من كذب ما قيل له. فاستحسن الامبراطور ذلك وأمر بالكساء فألبس اياه على لحمه ووكل به من يحرسه يومين كاملين. فلم يصبه ضرر فأمر الامبراطور فأتى برجل محكوم عليه بالاعدام وألبس الكساء ثلاثة أيام فلم يصبه شيء فتحقق من كذب الوشاية ورد الى البطريرك اعتباره واعتذر إليه وطلب إليه أن يكتب الى سعيد باشا بالرجوع عن الخرطوم وطلب شروط الصلح ووقعها. وسير بالكتاب نفراً من الأحباش فلم يكد سعيد باشا يتسلم الخطاب حتى رد عليه أنه قد أصدر أمره بالعودة ويرجو ابلاغ جلالة الامبراطور أخلص الود وحسن التحية فاذا ما اطلع الامبراطور على ذلك هب لملاقاة البطريرك حاسر الرأس حافي القدم وانكب على يديه يقبلهما فقبل البطريرك رأسه وساعده وأمر الامبراطور باذاعة النبأ واقامة الأفراح والمآدب وأرسلت والدته الى البطريرك هدية ثمينة. وكذلك فعل الأمراء وكبار رجال الدولة.

ثم استأذن البطريرك في الرحيل الى مصر فأذن له وأرسل معه وفداً يحمل الهدايا إلى سعيد باشا. فخرج في موكب كبير بصحبة رجال الجيش وأعيان الدولة الى الحدود حتى إذا وصل الخرطوم وردت البشائر بوصوله فاطمأن الناس عليه وفرحوا به بعد أن يئسوا من عودته ووصل القاهرة في ١٣ فبراير سنة ١٨٥٨ بعد أن غاب سنة ونصف سنة. فقوبل مقابلة لائقة وأنزل الوفد الحبشي دار الضيافة وهرع الناس لاستقباله وكان يوماً مشهوداً يندر أن يرى الناس مثله. وقد استقبله سمو بك ميخائيل أحد أعيان الأقباط في داره بحارة السقايين في موكب حافل سار فيه رجال الدين بملابسهم الرسمية رافعين الصليب أمامه من المنزل إلى الكنيسة مرتلين أناشيد الفرح وكانت هذه أول مرة يرفع فيها الصليب جهاراً في القاهرة بعد انقضاء أيام الظلم. واستقبل سعيد باشا الوفد الحبشي وتقبل منه ما معه من هدايا ورد عليها رداً جميلاً